المقتطف

الجزء الثالث من السنة الحادية والعشرين

١ مارس (اذار) سنة ١٨٩٧ الموافق ٢٧ رمضان سنة ١٣١٤

يوسيفوس المؤرخ

ترجمة واعماله

قلنا في ترجمة هيرودوتس التي نشرناها في الجزء الماضي " ان من عانى كتابة ترجمات وجمع موادها وتحقيقها يعلم علم اليقين انهُ يتعذَّر على المرء ان يكتب ترجمة رجل من ابناء عصره فكيف والرجل عاش ومات قبل عصرنا باكثر من الفي عام ". الاَّ ان ترجمة يوسيفوس التي نحن بصددها الآن ليس في جمعها شيء من المشقة لانهُ كتب ترجمتهُ بيده ونصَّ اخبارهُ بنفسهِ واسهب في ذلك ولا سيما في كتابهِ حرب اليهود حتى لم يبقِ مجالاً للبحث والتنقيب وكل ما سنذكرهُ عنهُ ملخص من ترجمتهِ ومن كتابهِ المشار اليهِ (١)

ويؤخذ من ترجمتهِ انهُ من بيت عريق في الشرف نابهٍ من اعلى طوائف الكهنة مقاماً وامهُ من آل حشمناي الذين تولوا الملك ورئاسة الكهنوت معاً واسمهُ يوسف واسم ابيهِ متياس ولذلك فهو يوسف بن متياس لا ابن كريون كما ذكر ابن خلدون فاضلاً واصلٌ كثيرين قبلنا وبعدنا. اما يوسف بن كريون (بالياء المثناة التحتية) فمؤرخ آخر احدث عهداً من يوسيفوس سمَّى نفسهُ باسم احد قواد اليهود (٢) واوهم الناس انهُ يوسيفوس نفسهُ. وقد اخترنا كلاً من يوسيفوس على كلة يوسف لكثرة شيوعها في كتب التاريخ.

وكانت ولادة يوسيفوس في السنة الاولى من ملك كايوس قيصر (كاليغولا) اي سنة ٣٧

(١) اكثر اعتمادنا في ما يلي على الطبعة الانكليزية من كتاب يوسيفوس التي ترجمها الكاتب الموسوعي ولستن

(٢) جعل يوسف بن كريون او كريون بن يوسف حاكماً على اورشليم عند اول عصيان اليهود ثم قتلهُ الفيورون

او ٣٨ للمسيح ودرس العلوم المعروفة في عصره ونفقه فيها وقال انهُ كان شديد الحفظ ثاقب الذهن فلم يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى صار رؤساء الكهنة ووجوه اورشليم يأخذون برأيه في تفسير بعض المسائل الشرعية الغامضة . وفي ذلك مبالغة عظيمة كما لا يخفى لكن يوسيفوس مغرم بالمبالغات في كلامه عن نفسه . ولما بلغ السادسة عشرة جعل يبحث في المذاهب القائمة عند اليهود حينئذٍ فاختار منها مذهب الفريسيين وتمذهب به

وحدث بعد مدة ان وافى اليهودية قيض على بعض الكهنة ووضعهم في القيود وكان يوسيفوس يحسبهم من جلة قومه وفضلاء مذهبه فقصد رومية ليسعى في اطلاقهم وغرقت السفينة به في الطريق لكنهُ نجا منها مع ستمئة من ركابها وركب سفينة اخرى وبلغ رومية وتعرَّف بيهودي من المقربين الى القيصر فأوصلهُ الى بوبيا زوجة نيرون فتوسطت لهُ في اطلاق الكهنة واهدت اليهِ كثيرًا من التحف

ولما عاد الى وطنهِ رأى اليهود متغيرين على الرومانيين لظلمهم لهم عازمين على شق عصا الطاعة فانذرهم وحذَّرهم العاقبة وقال لهم ان الرومانيين اقوى منكم ذراعًا واطول في القنون الحربية باعًا . ولكنهُ كان كالناطح في رماد واشفق ان هو زاد في التحذير والانذار حسبوا ان لهُ ضلعًا مع الاعداء فتركهم ولجأ الى دار الهيكل الداخلية . وتغلَّب العصاة على نائب الرومانيين فشقت البلاد كلها عصا الطاعة . وجُعل يوسيفوس والياً على الجليل فلم يرَ لهُ بدًّا من مجاراة قومهِ وجمع كلمتهم آملاً ان يعود اليهم الاستقلال الذي حُرموهُ فكان اول امر شرع فيهِ بعد مجيئهِ الى الجليل ان أشرك وجهاء البلاد في السلطة التي أُعطيها لانهم ادرى ببلادهم منهُ فاختار سبعين من اكبرهم سنًّا واوسعهم اختبارًا واقامهم حكامًا على الجليل واقام سبعة قضاة في كل مدينة لفصل الخصومات الصغيرة وامر ان ترفع الدعاوى الكبيرة المتعلقة بالحياة والموت اليهِ والى السبعين شيخًا الذين معهُ

ثم اخذ يهتم بما يقي البلاد شبهات الاعداء حاسبًا انهُ لا بدَّ من ان يحاول الرومانيون استرجاعها ثانيةً فاقام الاسوار حول مدنها وانشأ فيها الحصون والمعاقل واختار مئة الف من نخبة رجالها الاشداء ونظمهم جيشًا وسلحهم بما اديرَ من الاسلحة وعلمهم كيفية استعمالها ومرَّنهم في ذلك وقسمهم فرقًا فرقًا مثل الجنود الرومانية وجعل عليهم رؤساء عشرات ورؤساء مئات ورؤساء الوف وعلَّمهم استعمال البوق والمناداة بهِ وطرق الزحف وبسط الجناحين وادارتهما واخبرهم ان خصومهم الرومانيين من اشد الناس بأسًا وامهرهم في فنون الحرب . وان الجندي لا يتغلَّب على غيرهِ الاَّ اذا كان باسلاً كبير النفس كريم الاخلاق وان من كان فاسد السيرة

والشريرة لا يرجى لهُ فلاح لانهُ ينتقد شجاعتهُ الادبيَّة ومن ليس شجاعاً في نفسهِ لا يستطيع قوة بدنهِ شيئاً لانهُ يحجم عن مواقع القتال مثل اضعف الناس

واختار منهم ستين الف راجل ومئتين وخمسين فارساً (٢) وكان عندهُ غير ذلك الاف وخمس مئة من المستورقة وستمئة من الحرس الخاص ووزَّع بقية الجنود على المدن وامرهم ان يستعد كل رجالها للدفاع اذا اقتضت الحال

وقام لهُ خصوم كثيرون حاولوا الايقاع بهِ مدفوعين الى ذلك بما في نفوسهم من اللؤم والخساسة فنصبوا لهُ مكايد كثيرة ولكنهُ نجا منها كلها. ومن هؤلاء الخصوم يوحنا بن لاوي ويشوع بن صفياس حاكم طبرية . قالَ " وكان يشوع بن صفياس رجلاً شريراً فاسداً فاخذ شريعة موسى يدهِ ونادى اهالي طبرية قائلاً ان لم تكرهوا يوسيفوس من قبل اقسم فاكرهوهُ لانهُ اساء الى شريعتكم واوقعوا بهِ العقاب الذي يستحقهُ . ثم اخذ بعض الرجال المسلحين واسرع الى البيت الذي كنتُ فيهِ لكي يقتلني وكنت نائماً مستغرقاً من شدة التعب لا اعي على شيء ولكن سمعان الذي كان قائماً على حراستي ايقظني لما رآهم آتين عليَّ واخبرني بالخطر المحدق بي وطلب مني ان اسمح لهُ ليقتلني فاموت موت الابطال قبل ان يقبض عليَّ اعدائي ويقتلوني بايديهم او يضطروني ان اقتل نفسي بيدي . اما انا فلمتهُ امري لله ولبستُ حينئذٍ سوداء وخرجتُ من طريق آخر واتيت ساحة المدينة حيث كان الشعب مجتمعاً وطرحتُ نفسي على الارض وبللت التراب بدموعي حتى اذا رأيت امارات الشفقة والحنو على وجوههم عزمت ان اوقع فيهم الشقاق قبلما يرجع الرجال المسلحون الذين مضوا الى بيتي ليقتلوني فقلت لهم ايُّها اني مذنب كما تقولون ولكن اسمعوا حتى اخبركم لماذا حفظت المال المنهوب فان اقتلوني ان اردتم (وكان بعض اليهود قد تجمعوا على امرأة بطليموس والي البيرية وهي سالومة في موكبها ونهبوا ما معها من الحلى والمال والنقود وجاءوا بها الى يوسيفوس فلم يشح لهم بها بل حفظها ليردها الى اصحابها قائلاً ان شريعتنا لا تبيح كاسلب اعدائنا وكأنهُ كان يتعهد ان يصطلح مع الرومانيين اذا استطاع الى ذلك سبيلاً فاخذها يشوع خصمهُ حجة عليهِ) . ولم اتم كلامي حتى عاد الرجال الذين ذهبوا الى بيتي فهجموا عليَّ يريدون قتلي الاَّ ان الشعب منعهم من ذلك فامتنعوا حاسبين اني اذا اخبرتهم بحفظي المال المنهوب لاردهُ الى الوالي ثبت لهم خيانتي فيسحقون لهم بقتلي . فلما سكتوا كلهم وقفت وقلت يا ابناء وطني لست ممن يكرهُ الموت اذا استحقهُ عدلاً ولكني اريد ان اخبركم حقيقة هذا الامر قبل ان اموت فاني

(٢) كان عدد فرسانهِ اكثر من ذلك كما سيجيء ولعلهُ ٢٥٠٠

اعلم انكم ترحبون بالفرباه ولذلك كثر النزلاء في مدينتكم جاؤوكم ليشاركوكم في السراء والضراء فعزمت ان ابني بهذا المال سوراً حول مدينتكم ولذلك اراكم غضابي عليّ " ولما قلتُ ذلك جعلوا يشكرونني ويشجعونني الاّ ان اولئك اللصوص الذين قصدوا الايقاع بي خافوا ان اعود فانتقم منهم فاختاروا ستة رجل مدجج بالسلاح وتبعوني الى بيتي عازمين ان يحرقوهُ بي . و بلغني ذلك فرأيت انهُ لا يليق ان اهرب من وجههم وقلت ان الحزم اولى في هذه الحال فامرت ان تقفل ابواب البيت وصعدتُ الى غرفة عالية وخاطبت الجمع منها قائلاً ارسلوا اليّ واحداً منكم لادفع اليهِ المال الذي تطلبونهُ فلا يبقى داعٍ لهذا السخط . فارسلوا رجلاً من اشدهم بأساً فلما مثل بين يديّ امرت بهِ ان يجلد ثم قطعت يدهُ وعلقتها في عنقهِ وارجعتهُ اليهم على هذه الصورة فلما رأوهُ خافوا وحسبوا اني لم افعل ذلك الاّ وعندي جيش اقوى منهم واني اعاقبهم مثلهُ اذا قبضت عليهم فاركنوا الى الفرار "

والظاهر ان الافتخار والتهليل بالاعداء على هذه الصورة كانا شائعين اتم الشيوع في ذلك العصر فيذكرهما يوسيفوس غير متأثر كانهما من الاعمال العادية

وكان خصومهُ يوغرون صدور اليهود عليهِ وعلى اللاجئين اليهِ ويتهمونهم بانهم سحرة استخدمهم الرومانيون الايقاع باليهود بسحرهم فاجابهم يوسيفوس جواباً مفحماً قال لو استطاع الرومانيون ان يتغلبوا عليكم بالسحر لما اضطروا ان يضعوا في بلادكم عشرة الآف مقاتل من نخبة رجالهم . فاذعنوا بهذه الحجة لكنَّ المفسدين لم ينفكوا عن ايغار صدورهم والقاء الفتن في البلاد فافسدوا اهل طبرية عليهِ وكادوا يوقعون بهِ مرة اخرى لو لم يلجأ الى حيلة نجا بها . ثم استدعى مثير الفتنة وقبض عليهِ وامرهُ ان يقطع يديهِ كلتيهما فارتعدت فرائصهُ وطلب من يوسيفوس ان يسمح لهُ بقطع واحدة فقط وما زال يتوسل اليهِ حتى تظاهر بالرقة واجاب طلبهُ فاستلَّ سيفهُ وقطع يسراهُ بيمناهُ

ولا ندري كيف يأمر بمثل ذلك وهو الرجل الذي يظهر من الشفقة وكرم الاخلاق ما يجعلهُ محلاً رفيعاً بين كرام الانام . لكننا لا نعدل في حكمنا على الناس الاّ اذا راعينا مألوف عاداتهم والظاهر ان قطع اليد كان في عصرهِ من ايسر الامور واكثرها استعمالاً

و بلغ القيصر نيرون ان اليهود شقوا عصا الطاعة وشاغبوا بالجنود الرومانية فاظهر الجلد واخفى الكمد كبراً وعتوّاً وقال ان ما حدث في اليهودية مرجعهُ إهمال قوادنا لا شجاعة اليهود . فعزم ان يبعث اليهم رجلاً محنكاً يخمد ثورتهم ويكبح جماحهم فلم يجد لذلك مثل القائد اسبسيانوس (او فسبسيان) فانهُ كان فيهِ محنكتهُ التجارب ودربتهُ المعارك وهو الذي اخمد ثورة بلاد

المغرب واعاد بريطانيا الى السلطنة الرومانية بعد ان عصت عليها . ولهُ ابناء فيحفظهم تيرون رهائن عندهُ خوفاً من غدره لو اراد الغدر به . فاختارهُ للمجيء إلى الشام واخماد ثورة اليهود وردهم إلى الطاعة

وقام أسبسيانوس من ساعتهِ وبعث بابنهِ طيطس إلى الاسكندرية ليوافيهُ منها بالفيلق الخامس والعاشر من الجنود الرومانية وسار هو بطريق الدردنيل وجمع الجنود الرومانية والمستزيدة من البلاد التي مرَّ فيها ووصل انطاكية فوجد الملك اغريباس في انتظارهِ مع جنودهِ فجاء بهم إلى عكاء وألفيهُ هناك جم غفير من اليهود الذين لم يشتركوا في الثورة بل خافوا عواقبها وبقوا على عهد الرومانيين . ثم جاءهُ ابنهُ طيطس بالفيلق الخامس والعاشر وجاءتهُ جنود اخرى من نواحي الشام وبلاد العرب فبلغت جنودهُ ستين الفاً ما عدا الخدم وهم رجال حرب ايضاً يخدمون اسيادهم ويحاربون بجانبهم

ووصف يوسيفوس معسكر الرومانيين وصف معجب بهم مبالغ بمدائحهم متفنن في اساليب الوصف قال : ان كل جندي منهم يتمرَّن كل يوم على استعمال السلاح كأنهُ في ساحة القتال ولذلك يسهل عليهم احتمال المشاق حتى ان الاضطراب لا يشوش نظامهم والخاوف لا تمس قلوبهم والمتاعب لا تضني عزائمهم . ويتعذَّر على اعدائهم ان يفاجئوهم في معسكرهم لانهم يحكمون وضعهُ حتى تظنهُ مدينة بشوارعها وحصونها واسوارها وخنادقها فيهدون الارض اولاً اذا لم تكن سهلاً ويبتدئون الخيام فيها سطوراً متوازية على ابعاد متساوية ويقيمون حولها سوراً بابراج وينصبون بينها آلات رمي السهام وآلات رمي الحجارة ويجعلون للسور اربعة ابواب كبيرة وينصبون خيام القواد في وسط المعسكر وخيمة القائد العام في وسطها كلها وهي كالهيكل الكبير وقد يحيطون المعسكر بخندق عرضهُ اربع اذرع في مثلها عمقاً ويتمون ذلك كلهُ بسرعة فائقة الحد

وينقسمون داخل المعسكر الى فرق وهم يأكلون ويشربون وينامون ويقومون في اوقات معينة حسب صوت البوق ومتى قاموا في الصباح استعرض القواد جنودهم وذهبوا الى القائد العام واخذوا منهُ شعار ذلك اليوم (سر الليل) وتلقوا الاوامر اللازمة ليومهم

واذا ارادوا الارتحال نادام البوق فرفعوا الخيام وحزموها وحزموا سائر الامتعة ووضعوها على البغال وغيرها من المطايا واحرقوا سور معسكرهم وحينئذٍ ينادي المنادي قائلاً هل انتم مستعدون للقتال فيجيبونهُ مبتهجين نعم نحن مستعدون ويرفع كلٌّ منهم يدهُ اليمنى علامة الرضى ثم يسيرون صفوفاً صفوفاً لا تسمع منهم الاَّ وقع اقدامهم . والمشاة منهم مسلحون بسيوفين

سيف على اليمين وسيف على اليسار والذي على اليسار طويل واما الذي على اليمين فقصير لا يزيد على شبر ومع كلٍّ منهم حربة وترس وفأس ومنشار وسلة مشدودة بسير وزاد يكفيهِ ثلاثة ايام ولهُ درع على صدرهِ وخوذة على رأسهِ . والفارس معهُ سيف طويل على يمينهِ ولتٌ في يدهِ وترس يعلقهُ على جوادهِ وثلاث حراب في جعبتهِ وهو لابس درعاً وخوذةً . ومنهم جنود لقطع الحراج وتمهيد الطرق يسيرون امام الجيش لهذهِ الغاية

ولا يفعلون شيئاً ولا يشرعون في قتال ما لم يشاوروا اولاً وما يقرُّ رأيهم عليهِ يفعلونهُ ولا يرجعون عنهُ ولذلك يقل خطأهم وان اخطأوا سهل عليهم الاصلاح . وعندهم ان الخطأ بعد التروي وامعان النظر خير من الاصابة بلا نظر ولا روية لان هذهِ الاصابة تجرُّ الى الغرور والاعتساف واما المشورة فتوجب الحذر وان اخطأ صاحبها فلهُ العزاء بانهُ فعل كل ما في طاقتهِ

وتمرُّنهم في استعمال الاسلحة يقوي اجسامهم وتنومهم ايضاً . وهم صارمون جدًّا فيعاقبون المرتد بالقتل ويجازون الشجاع الباسل احسن جزاء . واذا نُفخ في الصور وديرت رحى الحرب صار الجيش كلهُ رجلاً واحداً فيتقدم ويتأخر ويدور ويلتف بسرعة تفوق الوصف كأنهُ كلهُ آذانًا تسمع صوت البوق وعيونًا ترى الاعلام واليارق فيعمل ما يأمرهُ بهِ قوادهُ باسرع من لمح البصر . واذا تلاحموا مع الاعداء لم يصرفهم عنهم عَدَدٌ ولا عدَد ولا نوة ولا حيلة ولذلك كثرت انتصاراتهم وقلَّ انخذالهم . فاذا كانوا على ما وصفنا من التدبير والحزم والمهارة واليسالة فلا عجب اذا دانت لهم المسكونة من الفرات الى الاوقيانوس الغربي ومن سهول ليبية الخصبة إلى الرين والدنوب حتى يصح ان يقال ان املاك الرومانيين لا تقلُّ عظمة عن الرومانيين انفسهم

وكان يوسيفوس قد جمع قوتهُ في مدينة جيثاثا وهي معقل حصين يعسر الوصول اليهِ بل احصن معاقل الجليل فحسب الرومانيون انهم اذا تغلبوا عليهِ دانت لهم البلاد كلها فجمع أسيسيانوس جنودهُ كلها وسار لقتالهِ وحاصر مدينة جيثاثا ورماها بالمجانق وبنى الابراج بجانب اسوارها إلى ان تمكن من اخذها عنوة بعد قتال تشيب لهُ الاطفال . ووصف يوسيفوس هجوم الرومانيين عليهِ ومقاومتهُ لهم وصفاً بديعاً ملأ اثني عشرة صفحة كبيرة من كتابهِ وسنأتي على خلاصتهِ في الجزء التالي لان فيهِ اوفى شرح لطرق الهجوم والدفاع في تلك الايام